الحزن في الأغنية الشعبية الفلسطينية

بقلم نمر سرحان

تعزى ظاهرة الحزن في الاغنية الشعبية الفلسطينية الى العديد من العوامل ، فطابع الجد والتغني بأغاني البطولة والفخر والحماسة هو طابع ذلك الجزء من الوطن العربي ـ فلسطين ـ والذي اتسم نتاجه الثقافي بهذه السمة . ولم يكن الاستعمار وحده هو الذي بليت به الارض الفلسطينية فحسب مثلها مثل اقطار الوطن العربي الاخرى بل انها ابتليت بالصهيونية ايضا . فبينما كانت الشعوب العربية الشقيقة تحارب الاستعمار في شخص الجندي الاجنبي والقواعد العسكرية ، كان الفلسطينيون يقاومون الاستعمار في شخص القوات المحتلة والعصابات اليهودية التي ظلت تقوم باعمال الارهاب طيلة فترة الانتداب للحصول على امتيازات فائقة في الارض العربية الفلسطينية . وكان العربي الفلسطيني يلتفت لنفسه ليجد المحتل البريطاني من جهة واليهودي المدلل من جهة اخرى ينهشان كيانه ويفرقانه في دوامة من الفقر والرعب . ولم يكن ما يحصل بالشيء الذي يسهل فهمه على الفلاح الفلسطيني فضلا عن ان متانة التخطيط الامبريالي الصهيوني لسلب الارض الفلسطينية وضرب الروح المعنوية عند الفلسطينيين بتجويعهم وارهابهم واحكام الطوق عليهم جعل الانسان الفلسطيني يرزح تحت ضربة مدوخة مذهلة ما زال رغم مضي السنين يعاني منها . لقد وجد الفلاح الفلسطيني نفسه في تناقض غريب فهو واقع بين ماض حافل بالبطولة والانتصارات وواقع لم يذق فيه غير طعم الهزيمة والاذلال . ولذلك سنرى ان طابع الاغنية الشعبية الفلسطينية البارز كان حزنا مشوبا بالذهول . وكان المغني الشعبي الفلسطيني لا يستطيع ان يصدق ما يجري بل ان ما يجري شيء عجيب يشبه الخرافات . وكيف له ان يصدق وان يسلم بأن الناس الذين اعتاد ان يعتبرهم مجرد عصابات وشراذم وشذاذ افاق واقلية يهزمون الابطال الفرسان الذين ملأوا ساحة النضال « بالقنا وضرب السنان » .

لقد استمر الانسان الفلسطيني يرفض من جهة ويستخف من جهة اخرى بالكيان اليهودي على ارضه سواء في عهد الانتداب ام بعد احداث ١٩٤٨ . ولم يكن ليستوعب حجم القوة العدوانية التي ضربت مصر عام ١٩٥٦ واربع دول عربية عام ١٩٦٧ . وظل الانسان الفلسطيني على رفضه لمنطق العدوان وعلى اصراره وتمسكه بحقه وارضه مهما كانت النكبات التي تحل به وكان لا بد للاغنية الشعبية الفلسطينية من ان تسجل كل ما طاف في وجدان الشعب وكل ما طفا على مشاعره الجماعية ازاء ذلك الغزو الصهيوني الاستعماري وهو يراه يتذرع بمنطق القوة والمفاجأة والغدر ويحبو على ارضه ثم يرتكض عليها منذ السنوات الاولى للانتداب حتى اليوم .

ويمكن اعتبار عام ١٩٣٧ ـ عام الثورة الفلسطينية والاضراب العام ـ نهاية المرحلة الاولى من الاتجاه الحزين في الغناء الشعبي الفلسطيني . تميزت هذه المرحلة بروح الانذار من الخطر الجاثم على ارض الوطن والمتمثل في الهجرة اليهودية ودعم السلطة المستعمرة لهم . وقد شاعت نغمة التحذير في اغانينا الشعبية . لقد كان ضمير الشعب يتوجس خيفة من تلك التحركات المشبوهة التي يقوم بها اولئك « الكفرة » ... فمن مظاهرات لهم وتحرشات بالمقدسات الى مطالبات لا تستند الى اي حق .. الى تظاهرات عصابات ومنظمات ارهابية ذات مطامح ومطامع عدوانية . ويعبر الفنان الشعبي الفلسطيني عن موقفه من منطلق الكبرياء :

وانا العربي يا عيوني تحت السيف رموني
والله لافدي الصهيوني واحمي بلادي فلسطين

وتعبر الاحداث الدامية بوجدان الناس .. وترن في الاغنية نغمة الحزن والتحسب لما تخفيه الايام لذلك البلد الهادىء الوادع :

مسكينة يا فلسطين وحزينة يا فلسطين
شو قضيتي ايام حلوين

اما المرحلة الثانية فيمكن تحديدها ما بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٤٨ . في هذه الفترة جرت احداث الحرب العالمية الثانية وكان النصر فيها لجانب الحلفاء الغربيين الذين اخذوا على عاتقهم بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين وتشجيع الهجرة اليهودية والتمهيد لقيام الدولة الصهيونية . وكان الانسان الفلسطيني يرقب بحذر بالغ تحركات الاستعمار البريطاني واعمال الارهاب اليهودية التي بدأت توجه ضد معسكرات الجيش البريطاني وجنوده ثم ضد القرى والمدن العربية . وفي اواخر الفترة بدأ الانسان الفلسطيني يستعد للدفاع عن نفسه وارضه في غمرة العسف البريطاني الذي استمر يحرم الفلسطينيين من شرف حمل السلاح ويتغاضى عن

ارهاب اليهود .

في المرحلة الثانية هذه تحدثت الاغاني الشعبية الفلسطينية عن النضال القومي المستمر الذي تجلى في سلسلة الثورات الفلسطينية كما تحدثت عن الابطال الفلسطينيين والمعارك التي خاضوها وعن انتصاراتهم وما اوقعوه من خسائر في صفوف الاستعماريين كما في هذه « الطلعة من اغاني المسيرة :

هز الرمح بعود الزين
وانتو يا نشامى منين (١)
واحنا (٢) شباب فلسطين
والنعم والنعمتين

***

في بلعا (٣) ووادي التفاح
صارت هجمة وضرب سلاح
يوم وقعة بيت امرين (٤)
تسمع شلع (٥) المراتين

وقد اصبحت احداث الثورات والنضال والبطولات الشعبية حديث الشاعر الشعبي الفلسطيني الذي اعتاد ان يطوف في دواوين القرى ومضافاتها وفي مقاهي المدن . وقد لعب الشاعر الشعبي (٦) الفلسطيني دورا طيبا في اذكاء روح النضال وتعميم الروح الثورية في طول البلاد الفلسطينية وعرضها : وهذه قصيدة للشاعر الشعبي محمود زقوت يلخص فيها الاحداث والاصطدامات:

بمعركة وادي التفاح ريح الجنة يا عالم فاح
استشهد فيها الفلاح حط (٧) السنجة بالمرتين
وقعة جرزيم وعيبال شيبت روس الاطفال
انخذلت فيها الانذال بفضل القائد فوز الدين(٨)
المندوب (٩) في البلاغات قال ما وقع اصابات
اعترف بجرح الضباط يعني الجند محجبن
اما نف القطارات صار موضة من الموضات
وانقلاب الدبابات مع تشليح العسكر مرتين
ترّيخ (١٠) عندك يا زمان ظلم وغدر الغربيين

(١) من اين . (٢) نحن
(٣) قرية بقضاء طولكرم في الضفة الغربية .
(٤) اسم معركة سميت باسم القرية .
(٥) صوت الانطلاق .
(٦) من الشعراء الشعبيين الفلسطينيين محمود زقوت الذي ولد بالمجدل ـ غزة وعاش فترة طويلة في مدينة طولكرم ومحارب ذيب الذي ولد في جبع ـ رام الله وما زال فيها . وساقدم لقراء الاداب دراسة عنهما وعن دورهما في احياء الروح الوطنية الفلسطينية والتغني بامجاد النضال الفلسطيني .
(٧) وضع .
(٨) فوزي القاوقجي احد قادة الجيوش الشعبية التي حاربت في فلسطين عام ١٩٤٨ .
(٩) المندوب السامي البريطاني .
(١٠) أرّيخ ، سجّل .

ان الشاعر اذ يختتم قصيدته بذلك البيت الذي يضمنه ثورته وحقده على الاستعماريين انما يتجاوز كل المآسي التي حلت بالشعب الذي حمل السلاح لنيل استقلاله وحريته وهو يختصر آلام الشعب واحزانه بدعوة التاريخ لتسجيل « ظلم وغدر الغربيين » . لقد تحسست الاغنية الشعبية الفلسطينية في هذه المرحلة آلام الشعب الذي تطحنه الاحداث وهو يقف شبه اعزل امام الاستعمار البريطاني والغزو الصهيوني بامكانياته الهائلة . وقد دأبت الاغنية الشعبية الفلسطينية على تثبيت صورة معينة للانسان الفلسطيني ، صورة البطل الذي يدفع الصخرة بيد واحدة ثم يخر صريع الواجب فتراه يفيض مهابة وتألقا حتى وهو على تراب الموت . والابيات التالية توضح هذه الصورة التي تفيض بمعاني الرثاء لبطل صرعه جنود الاستعمار :

شفت ابو كباري (١١) بالسرايا ممددا
حوله العساكر ناصبه الميدان
شفته على تخت الروبد ممددا
والدم جاري مبلل القمصان
يا حيف سبع الغاب كرم امجدا
يصبح دفين بتربة الوهدان
شواربه جنح الغراب مرقدا
وعيونه تلمع كبرق نيسان
كل البلد تبكي عليه وتتمجدا
تبكي الرجال وتنحب النسوان

مرحلة الندب

ووقعت النكبة عام ١٩٤٨ . وقامت دولة يهودية على انقاض الشعب الفلسطيني بعد قرار الامم المتحدة بتقسيم القطر . وبدلا من ان تحرر « الجيوش العربية السبعة » الارض من الغاصبين ذهل الانسان الفلسطيني وهو يرى ان الهدنة توقع وان اراضي جديدة تضاف للدولة اليهودية لم تكن في حدودها كما نص عليها قرار التقسيم . وتمر السنون والانسان الفلسطيني يلعق جراحه ويرنو الى ارضه المغتصبة ويتلقى ضربات الحدود. وقد وجد نفسه هذه المرة مجرد « شعب من اللاجئين » تحت وصاية الدول العربية ويتلقى المعونة التي تهدف الى مجرد الحفاظ على الحياة من غائلة الجوع من الناس الذين اوصوا بتقسيم بلاده .

لم يكن الانسان الفلسطيني ليستطيع ان يهضم ما حدث . كان الناس ينتظرون يوم الخامس عشر من ايار ليطردوا اليهود ، ويحرروا اراضيهم من تكالب الغرباء

ـ التتمة على الصفحة ٥٩ ـ

(١١) ابو اكباري هو المناضل الفلسطيني محمد محمود العديلي من قرية « بيتا » بقضاء نابلس وقد سجن في عكا في عهد الانتداب ونقل الى سجن نابلس ومن هناك فر الى غور الجفتلك بوادي الاردن مع زميليه المناضلين قاسم ابو سليقة العقراباوي وحميدة من طمون والقرى الثلاث عقربا وبيتا وطمون بقضاء نابلس في الضفة الغربية .

الحزن في الاغنية الفلسطينية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

الذين فرضوا انفسهم عليها . اما ما حدث فكان شيئا غريبا عجيبا لم يجد الفنان الشعبي ازاءه سوى التفجع والذهول :

قال احوال الدهر خلتنا عجيبا
انتصار الخصم علينا عجيبا
وبهذا الوقت شفت لكم عجيبا
سبع يا عرب في ثم (١٢) ارنبا

وتتفجر ينابيع الحزن بهذه الكلمات :

قال عتابا وما يحطلك مذلة
والشكوى غير للمولى مذلة
الوبش اللي نجح والسبع ذلا
وفرخ البوم يصطاد العقاب

في هذه المرحلة ندب الشعب الفلسطيني حظه وتفجع على مصيره وعكست الاغاني الشعبية الدهشة الكبيرة من الهزيمة . لقد كانت مقاييس الشعب للاحداث تعتمد على المقارنة بين الكثرة والقلة وبين الرجال والانذال . وهذا « محارب ذيب » (١٣) يعاتب العرب عامة . وهو يقول لهم :

قيسوا بني اسرائيل كالفرسان
التي كانت تفازينا ونفزيها

وهو يقول بكلمات تقطر بالمرارة اذ يتحدث عن تهديدات جولدا مائير للعرب وكيف تجرؤ « حرمة » على تهديد الملايين :

اي في حرمه سمها (١٤) جولد مائير
بتهدد في العرب اكبر تخطير
لا يا رجال العرب هذا ما يصير
حرمة بتهدد ميه مليونا

لم يكن ليفهم شعبنا ان مجموعة صغيرة منظمة من الناس تستغل اسلحة متنوعة من ادوات الحرب والاعلان قد فرضت الهزيمة على الملايين . كان ذلك شيئا اكبر مما نستوعبه عام ١٩٤٨ والاسوأ من ذلك ان عام ١٩٦٧ قد جاء دون ان نستوعب ذلك ! وهكذا ظل شعبنا يبكي مصيره ويرثي شهداءه . صارت الدار رمزا لما يكدس الانسان الفلسطيني عليه احزانه فهو يودعها ويتشوق اليها ويعدها بالشيد (١٥) والحنا اذا عاد اليها :

جيت اودعك يا دار شملاي
غريب امسّح دموعي بشملاي
انا ان طال الزمان وما رد شملاي
عيوني من البكا بترشح دما

(١٢) فم . (١٣) الشاعر الشعبي الفلسطيني المعروف .
(١٤) اسمها . (١٥) الجير .

ويقول :

يا دار يا دار من عدنا كما كنا
لاطليك يا دار بعد الشيد بالحنا

ويتفجع الانسان الفلسطيني على داره وهو يقارن ما كان بما هو كائن :

قال خسارة بعد العز نسكن الغيران (١٦)
بلاد صحرا وشجرة ظل ما فيها

لقد بكى الانسان الفلسطيني وندب لكنه لم يستسلم . ظل الفنان الشعبي الفلسطيني يغني ليوم النصر والعودة . حاول ان يناقش اسباب الهزيمة وهو يرى ان ذلك كامن في تفرق العرب وعدم اتحاد كلمتهم وبذلك يضيف لمأساته مأساة جديدة . ان الانسان الفلسطيني ليبدو طالب تحرير وطالب وحدة وهو يربط الوحدة بالتحرير ويراهما امرين متلازمين . وفي ذلك يتحدث قائل هذا البيت من العتابا :

قال فساد العرب اكبر خسارة
اسلي هالجمع ما هو خسارة
على اللد وعلى الرملة خسارة
يدوسوها العدا ونحن عرب

ويصبح يوم التحرير حلما جماهيريا تهفو اليه قلوب الجماهير وتنتظره فهو اليوم الذي يغسل العار ويزيل الهزيمة والمذلة . لقد تصور شعبنا فرصة التحرير محصورة في الزعيم ولذلك غنى للزعماء واهتز طربا لتصريحاتهم وتحركاتهم وافتخر بهم . وهو تارة حزين ينادي على الزعيم المحرر المنتظر ، وتارة فخور مترقب :

يا ويلي وين الذي يحرر وطنا
يا ذكره بالملك شعشع وطنا
ولا بد يرتجع هو وطنا
ولو نجوم السما بتسكب اطواب

***

بذكرك يا بطلنا طرب راسي
اسطولك باحياء الخصم راسي
قال عدوك في البحر لو كان راسي
بخيط العنكبوت بينسحب

ولم يصلنا من اغاني شعبنا في المنطقة المحتلة سوى تلك التي تتحدث عن المقاومة والاستبسال والصمود . ولا شك ان اخواننا هناك قد غنوا للالم وندبوا الضحايا التي سقطت في الجليل والمثلث والجنوب في مجاز كفرقاسم ومظاهرات الناصرة والرملة . وهناك على الارض الفلسطينية حيث تتكاتف عناصر شعبنا في الجليل والمثلث والجنوب وغزة والضفة الغربية لن تعدم الاغنية الشعبية الفلسطينية وسائل التعبير عن الموقف الجديد .

ما بعد حزيران ١٩٦٧

عندما حصلت نكبة ١٩٤٨ سمعت هذه الاغنية

(١٦) جمع غار . والبيت على لحن الشروقي .

التي تتحدث بمرارة عن حالة الذل التي يعانيها الفلسطينيون وهم يجدون انفسهم مضطرين للاصطفاف بطابور المؤن لاستلام مخصصات التموين من وكالة الامم المتحدة :

رحنا على دير عمار (١٧) امـا فضيحة ومعيار
وبصـف المـؤن نحتار يـا رب افرجها علينا

ولم يكن شعبنا ليفكر انه سيهجر منفاه الى منفى جديد وانه سيضطر ثانية للاصطفاف بطابور المؤن . كان في حزيران عام ٦٧ على موعد مع بياراته واراضيه ولم يكن ليحسب حساب الهزيمة والمذلة . وفجع الانسان الفلسطيني كما فجع كل عربي بهزيمة حزيران ٦٧ . وكان ذلك مصدرا لمزيد من الدهشة والذهول اذ تهزم الدول العربية ثانية . ويفر الناس من وجه الارهـاب وتخرج جماعة جديدة من شعبنا تحت اسم النازحين . ويقف الحداء الفلسطيني سليم عساف في طابور المؤن ثم يعود ليغني للالم والمذلة :

طلعت على الوكالة (١٨) حتـى اسجـل عيالي
النازح دب (١٩) العقال ورموني علـى الارضية
يا حلالي يا مالي
قالوا لي انت منين (٢٠) قلتلهم من قضا جنين (٢١)
واحنا مـن النـازحين وحيـاة رب البريـة
يا حلالي يا مالي
وقمت الايم (٢٢) حالي جمعـوا علـي العتـالة
حملت بيـدي عقالـي والكـل بيظحك علـي
يا حلالي يا مالي
آجو (٢٣) الشرطة والامن العام
وقـالوا لـي يـا ابو بسـام
اقف ع حيلـك (٢٤) وانهـام
يـا ابـن الضفـة الغـربية
يا حلالي يا مالي
قلت له ما بدها تحوص قدامك اسمر منحـوس
بيقول لك ما بدها فلوس بدنـا رجـال حربجية
يا حلالي يا مالي

وبعد نكبة حزيران ٦٧ تفتتح صفحة جديدة في تاريخ الاغنية الشعبية لا تختلف كثيرا عن ما سجلتـه الاغنية الشعبية بعد نكبة ١٩٤٨ ... حنين للعودة، ورجاء وتوسل من الله بالعون ، وتشبث بالزعامة العربية وانتظار ليوم التحرير . وبعد ان كان المغني الشعبي يتحسر على يافا واللد والرملة نسمع الحنين الى المدن الضائعـة حديثا .. شوق لجنين ونابلس والقدس . والحنين الى القدس يستقطب اهتمام الفنان الشعبي باعتبارها البلـد المقدس والمدينة الرئيسية في القطر المهزوم . ان الحنين للقدس مرتبط بالفزع من تدنيس المقدسات او لمجرد انها اصبحت في يد الاعداء « الكفرة » .. ويعكس هـذا الانطباع هذا البيت من العتابا للحداء الفلسطيني «يوسف البرغوثي» المعروف بلقب الحزرق :

اوف
يا صخرة (٢٥) ع العرب بالصوت نادي
اليهود استعملوك شبه نادي
بعد ما كان عود الند نادي
فتل دولابها واعطى قفا

صحيح ان الانسان الفلسطيني عاد يجتر احزانـه بعد هزيمة حزيران ٦٧ وصار لديه المزيد من التعقيدات التي تحيل حياته الى مأساة متصلة لكنه ظل على شموخه وكبريائه . فالامل رائده . امل بالعودة والوحدة ذلـك الامل الذي لـم تنل منـه الاحداث والسنون وتشبث لا ينقطع بالارض :

كريم الله على الاوطان بنعود
وهناك تكـون وحدتنـا عرب

وظل الانسان الفلسطيني على شموخه وكبريائـه فارادته لم تستسلم ، وتصميمه ظل على حاله... تصميم على العودة والتحرير والوحدة كما يبدو من هذه الشروقية للحداء الفلسطيني سليم عساف :

بـادي باسـم الله الواحـد الديان
من ذكر هذا الاسم فروا الشياطينا
مهد عيسى واسراء النبي العـدنان
من ظلمكم يا غرب هبت براكينـا
يا صخرة القدس كوني في رضا وامان
واذا هجرناك الى الرحمن اشكينا
نحن عروبة من نسل بني قحطان
وتاريخنا يعلمك احـوال ماضينـا
نحن يا قدس كلنا عرب شجعـان
اصرخي بصوتك ترى الان جينـا
من المحيط للخليج كلها عـربان
وحياة رب العرش الرحمن يهدينا

ذلك هو تصميم الانسان الفلسطيني ، وذلك هـو الامل الذي يعيش عليه ، وكما تحطمت على صخرتـه غزوات الصليبيين سيتحطم الغزو الصهيوني وينتصر امل الملايين . وغدا عندما تنقشع غمامة الهزيمة ستتلاشى نغمة الحزن وسيبدع يرغول الفلسطيني احلى نغمـات « الدلعونا وزريف الطول » .

وادي السير ـ عمان — نمر سرحان

---

(١٧) مخيم للاجئين الفلسطينيين يقع غربي مدينـة رام الله بالضفة الغربية . ويتحدث الفنان الشعبي الفلسطيني فـي قصيدة طويلة عن لجوئه لهذا المخيم ويصف الاصطفاف في طابور المؤن والمذلة التي يعانيها من جراء ذلك .

(١٨) وكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين .

(١٩) القى . (٢٠) من اين .

(٢١) المدينة المعروفة في الضفة الغربية بصمودها مدة طويلة بعد ١٥ ايار ١٩٤٨ والذي دافع عنها الجيش العراقي انذاك وصد هجوما عنها بعد ان دخلها الاسرائيليون والى جوارها تقع مقبرة الشهـداء العراقيين . والجدير بالذكر ان القوات الاردنية دافعت دفاع الابطال عن هذه المدينة في معركة مشهورة بالدبابات وصدت الهجوم الاول الذي قام به الاسرائيليون .

(٢٢) اجمع . (٢٣) جاؤوا . (٢٤) انهض .

(٢٥) الصخرة المشرفة بالقدس .